التعريف الاصطلاحي للتصوف

تكثرت العبارات التي شرحت معنى «تصوف» و«صوفي» حتى أوصلها بعضهم الى الف عبارة ليست هي تعريفات للتصوف بقدر ما هي شرح حال الصوفية فلهذا اختلفت باعتبارين:

الأول: الحال التي كان الصوفي عليها عندما شرح معنى التصوف أو الصوفي ، ولهذا قد للصوفي نفسه أكثر من تعبير . الثاني: الظرف الزماني والمكاني الذي تحدث فيه الصوفي، فقد كان للبلدان أثرها على طبيعة السلوك الصوفي. فالخلاصة أن هذه النصوص لا تمثل التعريف الصناعي ، الجامع المانع، وإنما هي شرح لأحوال الصوفية بحسب مراتبهم واختلاف بلدانهم.

نماذج من التعريفات

قيل للحسن البصري إن الفقهاء يقولون كذا وكذا فقال «وهل رأيتم فقيها قط ؟ انما الفقيه الزاهد في الدنيا ، البصير بأمر دينه ، المداوم على عبادة ربه عز وجل. هذا وصف للفقيه الحقيقي ـ أو بمعنى آخر الفقيه الصوفي ـ في نظر الحسن البصري . فالفقيه الحقيقي ليس هو العالم بالفقه، بل هو الذي يعيش وفقا لتعاليم الشريعة من زهد في ومداومة للعبادة وبصر بأمور الدين وادراك للمغازي الروحية التي عليها العبادات. وينقل الفضيل بن عياض « لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي ولا أحاسب عليها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة اذا مر بها أن تصيب ثوبه . في هذه الأقوال وما شاكلها ما يشير الى أن مفهوم التصوف عندهؤلاء الزهاد كان الزهد في الدنيا وتحقيرها ، والاقبال التام على العبادة.

وقد جمع ابو العلا عفيفي اكثر من ستين تعريفا للتصوف والصوفي –عن مقال نيكلسون- وضعها أربعة وعشرين صوفيا عاشوا ما بين سنة ٢٠٠ الى سنة ٤٠٠هـ، وكانوا من فارس أو العراق أو الشام أو مصر ، ولم يورد تعريفات لأحد من الصوفية بعد هذا التاريخ لانه لا جديد فيها زيادة على ما ذكره هؤلاء الأوائل . أما مصادر هذه التعريفات فهي الرسالة القشيرية وكشف المحجوب للهجويري وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ونفحات الأنس لعبد الرحمن جامي. ولا تخضع هذه التعريفات لتصنيف لصدورها عن قومهم أصحاب أحوال لا أصحاب أقوال علمية أو فلسفية. وقد يكون للصوفي الواحد أكثر من تعريف للتصوف ـ كما هو الحال في الجنيد والنوري والشبلي ، من غير أن يربط بينها رابط أو يجمع بينها جامع ، وذلك لأنا الصوفي ابن وقته ، فهو ينطق في كل وقت بما يغلب عليه الحال في ذلك الوقت. نعم. قد يقال ان الغالب على تصوف ذي النون المصري الكلام في المعرفة ،وفي تصوف أبي يزيد البسطامي الكلام في الفناء، وفي تصوف رابعة العدوية الكلام في المحبة، وفي تصوف شقيقه البلخي الكلام في التوكل وفي تصوف الجنيد الكلام في التوحيد. وقيمتها مجتمعة لا متفرقة، اذ خلالها جميعا تظهر شخصية ذلك التصوف وتبرز صفاته المميز له. فهي بمثابة الزوايا المختلفة التي ينظر منها الصوفية الأسلاميون الى حياتهم الروحية نكتفي بذكر نماذج منها،

١ـ معروف الكرخي «التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق وقصده، الحقائق مقابل الرسوم الشرعية ، وليس المراد هنا الاخذ بباطن الشرع وحده دون ظاهره، بل وجوب النظر الى باطن الشريعة (حقيقتها) بالأضافة الى القيام برسومها. والمراد باليأس مما في أيدي الخلائق الزهد فيما يملكه الناس من متاع الدنيا، فالتصوف في نظر معروف الكرخي جانبان ، الزهد في الدنيا والنظر الى حقيقة الدين وعدم الاكتفاء بظاهر تكاليفه.

٢- وعن الجنيد في بعض عباراته، « التصوف هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة أي بلا علاقة تربطك بالخلق، فتكون مع الله ولله.

وله أيضا، «الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها الا كل مليح أي أن الصوفي يواجه في حياته الظاهرة والباطنة كل بواعث الخير والشر والطاعة والمعصية ولكن لا يخرج منه الا ما هو خير وطاعة.

٣- وقال ذو النون المصري « الصوفي اذا نطق بان منطقه عن الحقائق، واذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق . أي أن الصوفي بين حالين ، اما أن يتكلم أو يلزم الصمت ، فان تكلم لا يقول الا حقا - أي ينطق بلسان الحقيقة وهو السان أهل الباطن، وان سكت عن الكلام نطقت جوارحه بما ينبيء عن أنه قطع علائقه بهذا العالم فهو مشغول بالله في الحالتين ، في حالة نطقه وحالة سكوته.

٤- وقال أبو حفص الحداد « التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل مقام ادب ، ولكل حال أدب . فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول.

٥- عن سهل التستري ، «الصوفي من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر، وانقطع الى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر أي الصوفي من صفت نفسه من كدورات البشرية فتحرر من ربقة الاستعباد المادي ، وهو من شغل فكره وقلبه بالله وقطع علائقه بالناس ، وزهد بالقيم المادية في هذه الحياة.

٦- أبو الحسين النوري « الصوفي لا يملك ولا يملك أي أن التصوف هو ألا تملك ماديا أو معنويا وألا تكون مستعبدا لشيء مادي او معنوي في هذه الحياة وانما العبودية الحقة هي الله وحده .

ورغم العدد الكبير للتعريفات فقد اخترنا تعريف لأحد الصوفية هو ابن عجيبة الذي عرّف التصوف بانه «علم يعرف به كيفية السلوك الى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل. ليكون التعريف الرسمي لهذا العلم بين كلمات كثيرة والتباس سيأتي ذكره بين التصوف والعرفان.